الفاصلة القرآنية وأثرها في النّظم القرآني

حمو عبد الكريم•

***

مقدمة:

القرآن الكريم مصدر الأمة الإسلامية تشريعاً وأخلاقاً وإعجازاً، ولقد اعتبر أهل العربية أنَّ آياته وسوره هي أساس الدراسات الصوتية لما تحويه من بيان ونظم؛ إنْ على مستوى الحرف أو المفردة أو الجملة.

ولأنَّ اللغة العربية تستمد أصولها من القرآن فتبقى أصولها ثابتة معه، وبذلك تضمن النُّطق الصحيح لجملة اللغة العربية، وأولويات هذه الأصول هي الأصوات، لأنَّ الأصوات هي أصل اللغات، يقول أحمد مطلوب: «إنَّ مِن أهم خصائص العربية ثباتُ أصوات الحروف فيها، لأنَّ جوهر الصوت العربي بقي واضحاً، وهو ما يتمثل في قراءة القرآن الكريم وإخراج الحروف الصامتة إخراجاً يكاد يكون واحداً»[1].

وإنَّ دراسة الفواصل القرآنية لهو من صميم البَّحث في نظم القرآن الكريم، وقد اتفق القدماء على تعريفها بأنّها: « كلمة آخر الآية كقافية الشعر وسجعة النثر »[2]. وقد تناولت بشيء من التفصيل في مؤلفات مثل: كتاب الطوفي (ت:716هـ) في "بغية الواصل إلى معرفة الفواصل"، ومؤلف "إحكام الرأي في أحكام الآي" لشمس الدين ابن الصائغ(ت:720هـ)، وكتاب "منظومة في فواصل ميم الجمع" للخروبي، و"شرح الفرائد الحسان في عدّ آي القرآن"

• باحث بالمركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية – وهران– الجزائر

[1]– أحمد مطلوب، بحوث لغوية، دار الفكر للنشر والتوزيع، ط1، عمان، 1987، ص 27.

[2]– جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: مركز الدارسات الإسلامية، السعودية، 2005م، 1784/4.

لعبد الفتاح القاضي(ت: 1403 هـ)، و"القول الوجيز في فواصل الكتاب العزيز" للمخلاتي(ت:1311هـ)... وغيرهم.

كما حظيت الفاصلة القرآنية اهتمام علماء البلاغة والإعجاز القرآني والقراءات، ومن الأعلام البارزين الذين اشتغلوا عليها نجد: الرماني (ت:386هـ)، وأبو بكر الباقلاني (ت:403هـ)، وأبو عمرو الداني (ت:444هـ)، ومحمد بن الحسن الطوسي (ت:460هـ)، وجار الله الزمخشري (ت:538هـ)، وأبو علي الطبرسي(ت:548 هـ)، وإبراهيم بن عمر الجعبري (ت:732هـ)، وبدر الدين الزركشي (ت:794هـ)، وجلال الدين السيوطي (ت:911هـ)...

أما في العصر الحديث، فلا تكاد تجد باحثاً في أسلوب القرآن الكريم، إلاّ وتناول الفاصلة في معرض حديثه عن القرآن والآيات المتشابهات من أمثال: كتاب "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية" لمصطفى صادق الرافعي، وكتاب "التصوير الفني في القرآن" لسيد قطب، وكتاب "التفسير البياني للقرآن الكريم" لعائشة عبد الرحمن، وكتاب "التفسير القرآني للقرآن" لعبد الكريم الخطيب...

وقد فرق الإمام أبو عمرو الداني(ت:444هـ) بين الفواصل ورؤوس الآي، فقال: «أمَّا الفاصلة فهي الكلام المنفصل مما بعده، والكلام المنفصل قد يكون رأس وغير رأس، وكذلك الفواصل يكُن رؤوس آي وغيرها، وكل رأس آية فاصلة، وليس كل فاصلة رأس آية»[1]. بينما رأى الباقلاني أنَّ الفاصلة هي «حروف متشاكلة في المقاطع، توجب حسن إفهام المعاني، وفيها

[1]- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبي الفضل، مطبعة عيسى البابي الحلبي،1/52-53.

بلاغـة»[1]، أمـا ابـن منظـور فقـال أنَّ «أواخـر الآيات فـي كتـاب اللـه فواصـل، بمنزلة قوافي الشِّعر، جل كتاب الله عز وجل واحدتها فاصلة»[2].

ولقـد عُرِضـت أقـوال كثيـرة تبـين مقصـود الفواصـل فـي القـرآن الكـريم، والملاحظ أنهم اتفقوا على الأركان التالية.

1- موقع الفاصلة آخر الآية.

2- التشاكل في الحروف والمقاطع.

3- دورها في تحسين المعاني.

4- دورها في استراحة الكلام.

5- توضيحها بالمقارنة إلى القافية أو السجع أو الاثنين معا[3].

إنَّ الفاصـلة فـي القـرآن الكـريم ظـاهرة أسـلوبية بيانيـة واضـحة المعـالم، تميـز بهـا القـرآن أكثـر مـن الشِّـعر والنثـر العـربيين، وقـد تتنـوع أشـكال الفاصـلة القرآنيـة فتمس الكلمة وتمس المقطع وتمس الجملة.

وقـد ذكـر سـيد قطـب أنَّ «الفواصـل فـي القـرآن غيرهـا فـي الشِّـعر، فهـي ليسـت حرفـاً متحـداً، ولكنَّهـا إيقـاع متشـابه، مثـل: "بَصِـيْر، حَكِـيْم، مُبِـيْن، مريـب" أو مثـل "الألبَـابْ، الإبْصَـار، النَّـار، قَـرَار»[4].وعـالج دور الفاصـلة فـي أداء التَّصـوير الفنـي للقـرآن والإيقـاع القرآنـي، فقـال إنَّ: «الفواصـل تقصـر غالبـاً فـي السـور القصـار، وإنَّهـا تتوسـط أو تطـول فـي السـور المتوسـطة والطـوال، ويقـل غالبـاً فـي السُّـور الطويلـة، وتغلـب قافيـة النُّـون والمـيم وقبلهـا يّاء أو واو علـى

[1]- الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، (د.ت)، ص523.

[2]- ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، مصر، (د.ت)،524/11، مادة "فصل".

[3]- ينظر: محمد الحسناوي، الفاصلة في القرآن، دار عمار ط2، عمان،2000، ص 29.

[4]- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، مصر، ط2، 2002، 193/2.

جميع القوافي في سور القرآن، وذلك مع تعدد الأساليب الموسيقية ولو تشابهت القوافي في السور المختلفة»[1].

وغير بعيد نجد في تفسير محمد متولي الشعراوي اهتماماً واضحاً بالفاصلة في السِّياق القرآني ومناسبة حضورها لتأدية معنى الآية، وهو يعتبر أنَّ ألفاظ القرآن اختيرت لمزية مبينة، لا في مجموعها ونظمها فحسب، وإنَّما في حركتها وجمالها واتساقها، ومقتضى الكلام يقتضي مراعاة الألفاظ وتناسبها ووفائها للأداء المعنى، ويرى أنَّ بلاغة القرآن المعجز تظهر في جملة ما تظهر فيه، اختيار الكلمة المناسبة. حيث قال: «وإنّه لا بد أنْ نتناول دقة اللفظ أو دقة التعبير في القرآن الكريم، وكلام الله يجب أنْ يكون في غاية الدِّقة، بحيث يُعبر عن الشيء تعبيراً كاملاً، فلا تجد حرفاً زائداً بلا معنا»[2]، وفيما يلي نبرز أثر الفواصل القرآنية في النظم القرآني:

1- تكرار الجملة:

هناك دقيقة لغوية لا بُد من التنبيه إليها، وهي تكرار الكلمات في أوائل وأواسط وأواخر الجمل القرآنية، مما تضفي نظاماً عجيباً في موقع هذا التِّكرار ضمن بناء السياق القرآني، وهذا الموقف نادى به أكثر من باحث من القدماء أمثال القاضي أبي بكر الباقلاني[3]، ومن المحدثين أمثال محمد العفيفي حيث يقول: «إنَّ إحكام القرآن وتفصيله هو العلم الذي يضمن لنا أننا كلّما احتجنا إلى أي مفردة قرآنية وجدناها بأي موضع من مواضعها كالحرف الواحد في الكلمة، يعني المكرّر في كلمة واحدة التي تجمع حروفها جميعًا في جملتها،

---

[1]- سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، مصر، ط16، 2002، 90-91.

[2]- متولي الشعراوي، معجزة القرآن، دار أخبار اليوم، ط1، 1993، 46/1.

[3]- أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، ينظر:إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ص47.

فإذا كل حرف بموضعه الخاص به تفصيلاً، يعني كل حرف غير الآخر، لأنَّه مكرّر، وإذا الحروف جميعًا تامة الارتباط بها كلها إجمالاً»[1]، ومهما يكن من شيء «فللتكرار القرآني دلالته الفنية التي لا يسبر غورها إلاَّ الفكر المتأمل والذوق الشَّفاف»[2]. بينما هناك من أنكر التكرار كالقاضي عبد الجبار في المغني[3]، وهناك من تحفظ عليه كالشعراوي، وقال أنَّ تكرار الألفاظ في القرآن موجود، لكن في كل تكريرة يتغير فيه المعنى ويتبدل فيه المقصود[4].

ففي قوله تعالى: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾[5]، فما النِّعمة في الآية:{كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ}؟ هل الموت نعمة؟! «يكون الموت نعمة من نِعَم الله على عباده؛ لأنَّه يقول للمحسن: سيأتي الموت لتلقَى جزاء إحسانك وثواب عملك، ويقول أيضاً للكافر: انتبه واحذر الموت قادم، كأنَّه سبحانه يُوقِظ الكفار ويَعِظهم لينتهوا عما هم فيه، أليست هذه نعمة من نعم الله ورحمة منه سبحانه بعباده؟»[6].

---

[1]- محمد العفيفي، القول الفصل بين كلام الله وكلام البشر، المكتبة العصرية، الكويت، بدون تاريخ، ص55.

[2]- عامر فتحي أحمد، المعاني الثابتة في الأسلوب القرآني، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، ص444.

[3]- ينظر: القاضي عبد الجبار، المغني في أبواب التوحيد والعدل، الشركة العربية، القاهرة، ط1، 1960، 1/398-399.

[4]- ينظر: الشعراوي، تفسير الشعراوي، مراجعة: أحمد عمر هاشم، مطابع أخبار اليوم، القاهرة، مصر،1991، 11/6840 -6841.

[5]- سورة الرحمان، الآيات: 26-27-28.

[6]- الشعراوي، تفسير الشعراوي، مراجعة: أحمد عمر هاشم، مطابع أخبار اليوم، القاهرة، مصر،1991، 13/7968.

فكلما ذكر نعمة أنعم بها قرّر عليها ووبّخ على التكذيب بها[1]، وبالتالي فالتكرار جاء للتذكير بنعم الله التي لا تحصى ولا تعد، «أفلا يجدر بالمرء أنْ يُفكر طويلاً في تلك الألاء والنِّعم، فيقوم بواجب الإيمان بالنِّعم وشكرها»[2].

وقد عرض عبد الكريم الخطابي حالات تكرار الفواصل والآيات في القرآن الكريم مثل الآية الواردة آنفاً، وعلق على أغراض الفاصلة هنا وبين أنها جاءت لـ:

أولاً: إيقاظ المشاعر.

ثانياً: إنَّ تفرد القرآن بهذا اللون من الأسلوب مع احتفاظه بمستواه الذي عرف له من روعة النَّظم وجمال، واتساق نغمه- هو شهادة قائمة تشهد للقرآن بالإعجاز.

ثالثاً: إنَّ هذا التكرار في ذاته يخدم غرضاً أصيلاً من أغراض الدعوة، وهو تثبيت القلوب على الحق، وإقامتها على الشريعة التي تحملها الدعوة[3].

فتكرار هذه الآية: ﴿فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[4]، إحدى وثلاثين مرة، أضفى على السُّورة جمالاً وتنغيماً وإيقاعاً عجيباً لا بد منه في هذه السورة.

وفي قوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[5]، ثم يقول في آية أخرى:﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[6].

---

[1]- ينظر: السيد المرتضي، أمالي، مطبعة السعادة، مصر، ط، 19571، 1/ 86.

[2]- أحمد أحمد بدوي، من بلاغة القرآن الكريم، نهضة مصر للطباعة والنشر، مصر، 2005، ص119.

[3]- ينظر: عبد الكريم الخطيب، إعجاز القرآن، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 1964، 1/389-392.

[4]- سورة الرحمان، الآية: 28.

[5]- سورة إبراهيم، الآية: 34.

[6] - سورة النحل، الآية 18.

نلاحظ تكراراً في المقاطع الأولى، فسياقَ الآية الأولى قد جاء فيها ذِكْر النِّعم وذكر الجحود والكفران بالنِّعم؛ وهذا ناشئ عن ظُلْم الإنسان لنفسه بالظُّلْم العظيم. وفي الآية الثانية جاء بِذكْر النِّعم، ورغم ظُلْمنا إلاَّ أنَّ رحمته سبحانه وَسِعَتْنا، ولم يمنع عنَّا ما أسبغه علينا من نعم، وكأنَّه سبحانه يُوضِّح لنا: إيَّاكم أنْ تستحُوا أنْ تسألوني شيئاً؛ وإنْ كنتم قد ظلمتُم وكفرتُم في أشياء، فظُلْمكم يقابله غفران منّي، وكافريتكم يقابلها مِنى رحمة، ففي الآية الأولى يعاملنا الله بعدله، وفي الآية الثانية يعاملنا الله بفضله[1].

فلا يوجد تعارضٌ بين الآيتين؛ بل كُل تذييل لكل آية مناسبٌ لها، ويجب علينا أنْ ننظُر إلى السِّياق الذي جاءت فيه كل آية. وقد أجاب الزركشي(ت:794هـ) عنْ سر تذييل آيَة النَّحل بوصف المنعم، وفي آية إبراهيم بوصف المنعم إليه ورأى أنَّ: «سياق الآية في سورة إبراهيم في وصف الإنسان وما جُبل عليه، فناسب ذكر ذلك عقيب أوصافه، وأمَّا آية النَّحل فسيقت في وصف الله تعالى وإثبات الألوهية وتحقيق صفاته، فناسب ذكر وصفه سبحانه، فتأمل هذه التراكيب ما أرقاها في درجة البلاغة»[2].

2- بنية الفواصل حسب نظم الآيات:

من الثابت أنَّ لكل سورة في القرآن مقصداً ثابتاً ومحدداً، وأنَّ أغلب الآيات والسور تلتقي مع بعضها البعض في الفواصل القرآنية، وهذا لا يتنافى وانفراد كل سورة بموضوعها الخاص، بل إنَّ تلك المعاني المشتركة بينهما هي التي تشَهد بوحدة النَّسق القرآني، فيعبر عن المعنى المُشترك في كل سورة بألفاظ وتراكيب تختلف قليلاً أو كثيراً عن الألفاظ والتراكيب التي ذكرت في السور الأخرى.

---

[1]- ينظر: الشعراوي، تفسير الشعراوي: 7561/12.

[2]- الزركشي، البرهان في علوم القرآن،1/ 86.

ويرى ابن أبي الإصبع[1] أنَّ هناك أربعة أنواع في بناء الفواصل هي: التمكين والتصدير والتوشيح والإيغال[2].

أ- التمكين: وفيه يمهد السِّياق للفاصل فتأتي الفواصل متمكنة في مكانها، مستقرة في قرارها مطمئنة في مواضعها غير نافرة ولا قلقة، متعلقاً معناها بمعنى الكلام كله تعلقاً تاماً، بحيث لو طرحت الفواصل لاختل المعنى واضطرب الفهم، وبحيث لو سكت عنها كمله السامع بطبعه[3].

وقد تناول الشعراوي هذا الضرب من الفواصل وإنْ لم يُسميها بلفظها المعروف، جاء في قوله: ﴿**أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ**﴾[4].

فقد اختار الحق هنا حاسة السَّمع {أَفَلاَ يَسْمَعُون} لأنَّها وسيلة الإدراك المناسبة للموقف، فبها نسمع ما يُحكَى عن الظالمين وبها نعتبر، وفي موضع آخر سيقول{أَفَلاَ يُبْصِرُونَ} فيُنوّع لنا ويُقلّب كل وسائل الإدراك لينبهنا من خلالها، ولنا أنْ نلحظ هنا توافق النسق القرآني بين صدر الآيات وعَجُزها، ففي الآية السَّابقة قال سبحانه{أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ}؛ أي: يدلُّ ويرشد، والكلام فيها

---

[1]- هو أبو محمد زكي الدين عبد العظيم ابن عبد الواحد بن ظافر بن عبد الله ابن محمد المصري المعروف بابن أبي الاصبع، ولد بمصر سنة 585هـ وقيل سنة 589هـ، عاش المؤلف معظم حياته في ظل الدولة الأيوبية، وشطر من دولة المماليك البحرية، من أهم أثاره: بديع القرآن والخواطر السوانح في أسرار الفواتح و تحرير التحبير. وكتاب الكافلة في تأويل تلك عشرة كاملة. توفى سنة 654هـ. بمصر. ينظر: أحمد بن يحيى شهاب الدين، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: إبراهيم صالح، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2002، 231/6.

[2]- ابن أبي الإصبع المصري، تحرير التحبير، تحقيق: حفني محمد شرف الدين، لجنة إحياء التراث الإسلامي، 1963، 233/2.

[3]- المصدر السابق، 232/2.

[4]- سورة السجدة، الآيتان: 27/26.

عن قصص تاريخي، فناسبها{أَفَلاَ يَسْمَعُونَ} أما هنا فالكلام عن مشاهد مرئية، فناسبها {أَفَلاَ يُبْصِرُونَ} فهذا ينبغي أنْ يُسمع، وهذا ينبغي أنْ يُرى[1].

فكان تذييل لكل جملة مناسب لسياقها الواردة فيه؛ فقد انتقلت الفاصلة في قوله:{أَفَلاَ يَسْمَعُونَ} مع أول الآية "أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ"، وذلك لأنَّ الهداية المرادة هنا مسموعة، فجاءت الفاصلة متمكنة في مكانها، لأنَّ ما سبقها مهد لها ذلك. كقوله:{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا} إلى قوله:{أَفَلاَ يُبْصِرُونَ} فإنَّ قوله:{يُبْصِرُونَ} فقد تقدمها قوله: "أَوَلَمْ يَرَوْا" فكان سوق "الماء" إلى الأرض وهو مما يرى تمهيداً للفاصلة ودلالتها على البَصر[2].

وفي موضع آخر تذييل قوله أيضا:﴿ **وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ**﴾[3]، وقوله: ﴿**وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَآ أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾[4]، وقوله:﴿ **وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ**﴾[5].

فإذا حكم إنسان في قضية القمّة وهي العقيدة بغير الحق فذلك هو الكفر، وإنْ ردّ الإنسان الحكم على منشئه -وهو الحق الأعلى- فهذا لون من الكفر، وإنْ آمن الإنسان بالقضية وهو مؤمن بالإله فغلبته نفسه فهذا هو الفسق، وإنْ حَكم إنسان بين اثنين وحاد ومال عن حكم الله فهذا هو الظلم[6].

إذن فـ "كَافِرُون" و"ظَالِمُون" و"فَاسِقُون" تقول لنا: إنَّ الألفاظ اختلفت باختلاف المحكوم به. وبه قال أبو حيان بأنَّ الخطاب ناسب كل حكم، «من

---

[1]- ينظر: تفسير الشعراوي، 1184/2.

[2]- ينظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 79/1.

[3]- سورة المائدة، الآية:44.

[4]- سورة المائدة، الآية:45.

[5]- سورة المائدة، الآية:47.

[6]- ينظر: تفسير الشعراوي، 3163/5-3164.

جحد حكم الله كفر، ومن لم يحكم به وهو مقر به ظالم فاسق»[1]. وقد جاء عن الزركشي قوله: «إنَّ كل واحدة تُعبر عن معنى، فالأولى نزلت في أحكام المسلمين، والثانية نزلت في أحكام اليهود، والثالثة نزلت في أحكام النصارى»[2].

ب- التصدير: وهو رد العجز على الصدر، وقد جعله ابن المعتز من فنون البديع الخمسة[3]، وهو في الفاصلة القرآنية أنْ تكون اللفظة نفسها. وهو على ثلاثة ألوان:

الأول: أنْ يُوافق أخر الفاصلة أول كلمة في الصدر مثل قوله:﴿ **لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا** ﴾[4].

الثاني: أنْ يُوافق أخر الفاصلة أخر كلمة في الصدر ومنه قوله:﴿ **وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا** ﴾[5].

الثالث: أنْ يُوافق بعض كلماته نحو قوله[6]:﴿**انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا** ﴾[1].

---

[1]- أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1993، 505/3.

[2]- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 87/1. وينظر: درة التنزيل وغرة التأويل، محمد بن عبد الله الأصبهاني، تحقيق: محمد مصطفى آيدين، مكتبة الملك فهد، السعودية، ط1، 2001، 462/1.

[3]- ينظر: ابن المعتز، البديع، تحقيق، كراتشوفسكي، لندن، 1935، ص36. وينظر: معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1988، 38/1. وينظر: كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، ص 385. وإعجاز القرآن، الباقلاني، ص 140. والعمدة، ابن رشيق، 235/1. ونهاية الإيجاز، الرازي، ص30.

[4] - سورة طه، الآية:61.

[5] - سورة النساء، الآية: 166.

[6]- ينظر: طالب محمد إسماعيل، نظام التكرار في البناء الصوتي، وعمران إسماعيل فيتور، دار زهران للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2007، ص 47.

ت- التوشيح: سُمي هذا الباب به لكون نفس الكلام يدل على أخره، نزل المعنى منزلة الوشاح، ونزل أول الكلام وأخره منزلة العاتق والكشح، الذين يجول عليهما الوشاح ولهذا قيل إنَّ الفاصلة تعلم قبل ذكرها[2]، ومنه قوله:﴿**إِنَّ اللَّـهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾[3]، فإنَّ معنى اصطفاء المذكورين يُعلم منه الفاصلة، إذْ المذكورين نوع من جنس العالمين[4].

ث-الإيغال: وهو أنْ يستوفي معنى الكلام قبل البلوغ إلى مقطعه، ثم بالمقطع فيزيد معنى أخر يزيد به وضوحاً وشرحاً وتوكيداً وحسناً، وأصل الكلمة من قولهم أوغل في الأمر إذا أبعد الذهاب فيه[5]. مثل قوله:﴿**أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾[6]، فإنَّ الكلام قد تَّم بقوله:{وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا}، ثم احتاج إلى فاصلة تناسب القرينة الأولى فلما أتى بها أفاد معنى زائدا[7]، وبالتالي هذه الأركان الأربع تدل على بناء الفاصلة في ختام السور القرآنية.

3- اختلاف الفواصل الأخيرة:

للقرآن الكريم كما ذكرنا خصوصية منفردة في شتى أركانه، في مفرداته وجمله وتراكيبه، وفي سوره وآياته، وفي علائق نظمه ونقاطه رسمه، وفي تقسيم آياته وفي آي فواصله، في كل ما يتعلق به.

---

[1] – سورة الإسراء، الآية: 21.

[2]– ينظر: ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير، 236. وينظر: السيوطي، معترك الأقران، 49/1.

[3]– سورة آل عمران، الآية: 33.

[4]– ينظر: تفسير الشعراوي، 1427/3.

[5]– ينظر: أبو هلال العسكري، الصناعتين، تحقيق: على البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط1، 1981، ص422.

[6]– سورة المائدة، الآية: 50.

[7]– ينظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، 96/1.

هـذا التفـرد والتفـوق لابـد لـدارس الإعجـاز الصـوتي أنْ يشـغله، ويبحـث فـي وسـائله وسـبله، للوقـوف على نطاقـات الإعجـاز فيـه ومـدارات خاصـيته الفريـدة. يقـول الزمخشـري فـي كشـافه القـديم: «لا تحسـنُ المحافظـة علـى الفواصـل لمجردها إلاَّ مع بقاء المعاني على سدادها على النَّهج الذي يقتضيه حُسن النَّظم والتئامه، كما لا يحسن تخير الألفاظ المُونقة في السَّمع السلسة على اللسان، إلاَّ مع مجيئها مُنقادة للمعاني الصحيحة المنتظمة»[1].

فلماذا اختلفت الفاصلتان في الآيتين المتتابعتين في قوله:﴿**قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾[2]؟ وفي قوله:﴿ **قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ**﴾[3]؟ وفي قوله:﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾[4]؟

يـرى الشـعراوي أنَّ تـذييل الآيتـين المتتـابعتين مختلـف؛ فـ"الفقه" هـو أنْ تفهـم؛ أي أنْ يكـون عنـدك ملكـة فهـم تفهـم بهـا مـا يقـال لـك علْمـاً، فـالفهم أول مرحلـة والعلـم مرحلـة تاليـة. وأراد الحـق بالتفصـيل الأول فـي قولـه:{لِقَـوْمٍ يَعْلَمُـونَ}الـدعوة للنظـر فـي آيات خارجـة عـن ذات الإنسـان، وهنـا أي فـي قولـه:{لِقَـوْمٍ يَفْقَهُـونَ}لفـت للنظـر والتَّـدبر فـي آيات داخلـة فـي ذات الإنسـان. ويـذيل الحـق الآيـة الكريمـة بقولـه:{لِّقَـوْمٍ يُؤْمِنُـونَ}؛ أي يؤمنـون بـأنَّ الإلـه الـذي آمنـوا بـه يَسـتحق بصـفات الجـلال والجمـال فيـه أن يُـؤْمَن بـه، وإذا أحفظنـا علـيهم استحمدنا أي استوجب علينا حمد إذْ أنه هدانا إلى الإيمان[5].

فما سبب مجي "يَعْلَمون" مع ذكر النُّجوم، و "يَفْقَهُون" مع ذكر إنشاء بني آدم؟ وقـد ذكر الزمخشـري أنـه كـان إنشـاء الإنْـس مـن نفـس واحـدة، وتصـريفهم

---

[1]- الزمخشري، الكشاف القديم، نقلاً من: البرهان في علوم القرآن، الزركشي، 165/1.

[2]- الأنعام، الآية: 97.

[3]- الأنعام، الآية:98.

[4]- الأنعام، الآية: 99.

[5]- تفسير الشعراوي، 3819/6-3820.

بين أحوال مختلفة ألطف وأدق صنعةً وتدبيراً، فكان ذكر الفِقه الذي هو استعمال فطنة وتدقيق نظر مطابقا له[1].

وبالتالي تذييل الآيات يُصادف كل حالة من حالات النَّفس البشرية؛ لأنَّ الأفهام مختلفة، وظروف الاستقبال للمعاني مختلفة، لذلك لم يترك الحق لأحد مجالاً في ألاَّ يفقه، ولم يترك لأحد مجالاً في ألاَّ يتعلم.

وفي موضع آخر نلحظ في تذييل الآيات مرة يقول سبحانه:﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[2]، ومرة يقول:﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ**﴾[3]، ومرة يقول:﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ**﴾[4]، ومرة يقول:﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾[5]. فتختلف الأدوات الباحثة في الآيات، وفي الفواصل التالية: " يَتَفَكَّرُونَ، يسمعون، يَعْقِلُونَ، عَالَمِينَ.

فحين يدعونا الحق للتدبُّر والعِظَة إنَّما ينبه فينا أدوات المعارضة لتتأكد، والعقل هُنا مهمته النَّظر في البدائل وفي المقدمات والنتائج، ويُنبِّهنا إلى البحث والتأمل في آياته. فيقول الله: تفكَّروا تدبَّروا، تعقَّلوا، كونوا علماء واعين لما يدور حولكم، وهذا دليل على أننا لو بحثنا هذه الآيات لتوصَّلْنا إلى مطلوبه سبحانه، وهو الإيمان[6].

---

[1]- ينظر: الزمخشري، الكشاف، 378/3. وأبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، 188/3. و ينظر: الألوسي، روح المعاني، 236/7. وينظر: والطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، 397/7.

[2]- سورة الروم، الآية:21.

[3]- سورة الروم، الآية: 22.

[4]- سورة الروم، الآية: 23.

[5]- سورة الروم، الآية: 24.

[6]- ينظر: تفسير الشعراوي: 11376/19-11377.

فقد ناسبت الفاصلة "يَتفَكَرُون" لأنَّ التفكر والنَّظر في تلك الدلائل هو الذي يجلي كنهها ويزيد الناظر بصارة بمنافع أخرى في ضمنهما. أمَّا في قوله "يَسْمَعُونَ" فقد تناسب بناء النظم مع نسق الفاصلة لعدة أسباب منها:

أحدهما: أي المنام والابتغاء من فضل الله- متعاورتان على النَّاس قد اعتادوهما فقلَّ من يتدبر في دلالتهما على دقيق صنع الله تعالى، فمعظم النَّاس في حاجة إلى من يوقفهم على هذه الدلالة ويرشدهم إليها.

ثانيهما: إنَّ في ما يسمعه النَّاس من أحوال النَّوم ما هو أشد دلالة على عظيم صنع الله تعالى، فطريق السَّمع هو أعم الطرق لمعرفة تفاصيل أحوال النَّوم فلذلك قيل "لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ".

أما في الآية الثالثة "يَعْقِلُونَ" نيط الانتفاع بهذه الآيات بأصحاب صفة العقل، لأنَّ العقل المستقيم غير المشوب بعاهة العناد والمكابرة كاف في فهم ما في تلك المذكورات من الدلائل والحكم على نحو ما قرر في نظائره أنفا[1]، وبالتالي كانت لكل فاصلة غرضها المناطة به، وهي تعكس سياق كل صدر مذكورة فيه. فالقرآن جاءت آياته وفواصله وفق نظام لا اختلال ولا تكليف فيه، وهذا سر إعجاز القران الكريم في تبيان مقصود دلالات الفواصل القرآنية.

4- جملة التذييل:

التذييل هو أنْ يُؤتي بعد تمام الكلام بكلام مستقل في معنى الأول تحقيقاً لدلالة منطوق الأول أو مفهومه، ليكون معه كالدليل، ليظهر المعنى عند من لا يفهم ويكمل عند من فهمه[2].

[1]- ينظر: الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ط1، 1984، 78-75/21.

[2]- ينظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 76/3.

ففي قوله تعالى:﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾[1]، ولسائل أنْ يسأل: لماذا لم يقل الحق:{فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الكَافِرِيْن}.

بين الشعراوي مناسبة هذه الفاصلة وانسجامها وخدمتها للمعنى فقال:«إنَّ الحق قد بيَّن أنّه لم يعذِّب قبل أن يُنْذِر، فهو قد أنذر أولاً، ولم يأخذ القوم على جهلهم. "فانظر" وجاء هذا الخبر لتسلية الرسول عليه السلام، فإنْ صادف مِن قومك يا محمد ما صادف قوم نوح عليه السَلام فاعلمْ أنَّ عاقبتهم ستكون كعاقبة قوم نوح، وفي هذا تحذير وتخويف للمناوئين لرسول الله صلى الله عليه وسلم»[2].

وجاء في نظم الدرر:«أنّهم هم الذين أنذرتهم الرسل، فلم يكونوا أهلا للبشارة لأنهم لم يؤمنوا»[3]، فالنذر أولاً ثم الأخذ ثانياً، وهو المنهج الذي قامت عليه الدعوة الإسلامية من نوح عليه السلام إلى النبي محمد عليه السلام.

وفي قوله تعالى:﴿ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾[4].

فالغرض من الفاصلة "تَعْقِلُونَ" «تنبيه المخاطبين بأنّه من الواجب قبل أنْ تفعلوا الفعل أنْ تنظروا ما يعطيه من خير، وأنْ تتركوه إنْ كان يعطي الكثير من الشر، وزنوا المسألة بعقولكم، وساعة أنْ تَزنوا المسألة بعقولكم ستعرفون أنَّ عمل الخير راجح»[5].

فإدراك التقوى بالعمل الصالح، ولا يتحقق هذا إلا بآلة العقل الواعية المرشدة الخيرة، وقد وضح سيد قطب هذا المعنى فقال: «يُحيل السياق

---

[1]- سورة يونس، الآية: 73.

[2]- تفسير الشعراوي، 10/ 6114.

[3]- برهان الدين البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (د.ت) 166/9.

[4]- سورة الأعراف، الآية: 169.

[5]- تفسير الشعراوي، 4427/7.

القرآني المخاطبين الذين يتهافتون على عرض حياة الدنيا إلى العقل، ولو كان العقل هو الذي يحكم لا الهوى، ولو كان العلم الحق لا الجهالة التي تسمى العلم هو الذي يقضي لكانت الدار الآخرة خير من عرض هذا الأدنى، ولكانت التقوى زاد الدين والدنيا جميعا»[1]، وبالتالي فقد خاطب الله العقل في أكثر من موضع، حيث إنَّه مناط التكليف، وهو الأداة التي بها تختار بين البدائل وبين التقوى والعناد.

وفي معرض أخر نجد في قوله تعالى:﴿**وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾[2]، فتذييل الآية بقوله "غَفُورٌ رَحِيمٌ" جاءت للبيان والتوضيح، لأنَّ المغفرة بالنسبة للعبد صعبة.. لأنك إنْ كُنت قد أضررت بأحد فإنمَا أضررت بنفسك ولم تضر الله، لأنه لا يلحقه ضرر بذنبك، فحين يقول الله "غَفُورٌ" فهو غفور لك و "رَحِيمٌ" بك[3].

فالاعتراف بالذنب على هذا النحو والشعور بوطأته دليل حياة القلب وحساسيته، ومن ثَّم فالتَّوبة مرجوة القَبول، والمغفرة مرتقبة من الغفور الرَّحيم، وقد قبل اللّه توبتهم وغفر لهم[4]، وبالتالي ناسبت "غَفُور رَحِيْم" صدر الآية، لأنه المعترِف بالذنب والنادم منه، لا يُبخس يوم القيامة وعفو الله شامله.

الخاتمة:

قصدنا في هذا المقال إبراز سر الإعجاز الصوتي للقرآن الكريم، وذلك مجيئه على هيئة خاصة من جهة البناء الصوتي أو التشكيل الصوتي، سواء لمفرداته أو جمله أو آياته، أو على المستوى الموسيقي أو الإيقاعي في

[1]- سيد قطب، في ظلال القرآن، 1833/3.

[2]- سورة التوبة، الآية: 102.

[3]- ينظر: تفسير الشعراوي، 5463/9.

[4]- ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، 10707/3.

السورة بأسرها، ومدى موافقة ذلك واتساقه مع المعاني والمقاصد التي تقصد إليها السورة، على نحو من الملاءمة والتناسق والبيان.

مصادر البحث ومراجعه:

القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم

- ابن أبي الإصبع المصري، تحرير التحبير، تحقيق: حفني محمد شرف الدين، لجنة إحياء التراث الإسلامي، 1963.

- ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، مصر، (د.ت).

- أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، ينظر:إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة.

- أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1.

- أبو هلال العسكري، الصناعتين، تحقيق: على البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط1، 1981.

- أحمد أحمد بدوي، من بلاغة القرآن الكريم، نهضة مصر للطباعة والنشر، مصر، 2005، ص119.

- أحمد مطلوب، بحوث لغوية، دار الفكر للنشر والتوزيع، ط1، عمان، 1987.

- الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، (د.ت).

- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبي الفضل، مطبعة عيسى البابي الحلبي.

- السيد المرتضي، أمالي، مطبعة السعادة، مصر.

- الشعراوي، تفسير الشعراوي، مراجعة: أحمد عمر هاشم، مطابع أخبار اليوم، القاهرة، مصر، 1991.
- الشعراوي، معجزة القرآن، دار أخبار اليوم، القاهرة، ط1.
- الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ط1، 1984.
- القاضي عبد الجبار، المغني في أبواب التوحيد والعدل، الشركة العربية، القاهرة، ط1، 1960.
- برهان الدين البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (د.ت).
- جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: مركز الدارسات الإسلامية، السعودية، 2005.
- سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، مصر، ط16.
- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، مصر، ط2، 2002.
- طالب محمد إسماعيل، نظام التكرار في البناء الصوتي، وعمران إسماعيل فيتور، دار زهران للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2007.
- عامر فتحي أحمد، المعاني الثابتة في الأسلوب القرآني، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر.
- عبد الكريم الخطيب، إعجاز القرآن، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 1964.
- محمد الحسناوي، الفاصلة في القرآن، دار عمار ط2، عمان،2000.
- محمد العفيفي، القول الفصل بين كلام الله وكلام البشر، المكتبة العصرية، الكويت، د.ت.

- محمد بن عبد الله الأصبهاني، درة التنزيل وغرة التأويل، تحقيق: محمد مصطفى آيدين، مكتبة الملك فهد، السعودية، ط2001،1.
- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، أحمد بن يحيى شهاب الدين، تحقيق: إبراهيم صالح، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2002.